أحمد سويد

القمر والحوت وصابر

كانت اعصاب الاستاذ صابر ما تزال متوترة بعض الشيء ، لم تهدئها تماما تلك الحقنة التي أعطته اياها الممرضة منذ لحظات .

وكانت اصابعه تعبث بشاربه الاسود الكث ، تشد شعراته تارة كانها تحاول ان تقتلعها واحدة واحدة ، وتارة اخرى كانت تشد « البطانية » باصرار الى رقبته التي كان ما يزال يحسها كقطعة من جليد .

وبصورة تلقائية راح يروي القصة :

كعادتهم بدأوا قصفهم المدفعي منذ الفجر ، كانت قذائفهم تطوق القرية ، تحرث حقولها بسخرية مرة ، وتروح تقهقه في الوديان السحيقة بعهر عجيب .

قلنا هذه تحية الصباح تعودناها منهم ، يرشقوننا بها مع كل فجر ، ليقولوا لنا بصوت فاجر : نحن هنا .

وكنا نعرف انهم هناك ، على بضعة كيلومترات منا ، وانهم برمايتهم اليومية العشواء ، انما كانوا يتحرشون بنا احيانا ، واحيانا اخرى يتسلون بذعرنا وعجزنا ، ويبددون ضجرهم .

ولكن الخنازير « زادوها » ،هذه الصبيحة .لقد صارت قذائفهم تقترب من اطراف القرية ثم صارت تتصيد البيوت الخلوية ، وها ان واحدة منها تسقط في باحة المدرسة ، ولكن لطف ربك يشاء لها الا تنفجر ، فصحت بالصغار : هيا الى بيوتكم يا اولاد ..

وبينما كان الاولاد يتطايرون كالعصافير من شبابيك المدرسة وابوابها ، خط خبيث منهم على اللوح الاسود بأحرف مذعورة :

« كلنا للوطن »

... لسعتني « كلنا للوطن » هذه . تراءت لي احرفها كحزمةعصي ممشوقة ، تشب الواحدة منها بعد الاخرى ، عن لوحها الاسود ، لتصفع قفاي بهزء جارح . ولا ادري لم قفزت الى ذهني ، صورة منسية من مختزنات الطفولة ، فتذكرت كيف كان اهل قريتي يهبون لنجدة القمر حين كان يهم به الحوت . كانوا ينهدون الى اواني النحاس والواح التنك يقرعونها بشدة ، ويهرعون الى البنادق يطلقون منها العيارات في الفضاء ، ويظلون يلاحقون الحوت اللعين بقرعهم وطلقاتهم الى ان يرغموه على الهرب واطلاق القمر .

... خجلت من نفسي ، وانا استدبر اللوح الاسود ، ورأيتمن اللياقة ان ابتسم لـ « كلنا للوطن » ابتسامة اعتذار وانا اخرج، فالوطن يعرف تماما انني اعزل ، وانني لا استطيع ان اخرس مدافع العدو بتلويحة من قبضتي العنترية .

ومسح صابر عرق جبينه ، وبلع ريقه المر وتابع :

.. واشتد القصف جديا هذه المرة ، مستهدفا قلب القرية ، فراحت قوافل الهاربين تتدافع نحو المسرب الشمالي ، بين دوي الانفجارات ، وعويل النساء ، وصراخ الاطفال ، وما هي الا ساعة او ساعتان حتى خلت القرية من ساكنيها ، وبقيت المسكينة وحدها فريسة للحرائق ، والرهبة والدمار .

قلت في نفسي وقد بدأ الليل يرخي سدوله : لن اتركها وحيدة ولن اخرج منها كما خرجوا ، فعزيز عليّ ان اخرج من ثيابي، من جلدي ، من عافيتي ..

... واغرورقت عينا صابر ، وهو يتحدث عنها بحنان غريب كأنه انما يتحدث عن محبوبة غالية ، ثم اخفى عينيه بكفيه لحظة وتاوه ثم تابع :

ـ قضيت ليلتي الاولى في قبو البيت ، ولكنني لم انم تلكالليلة. لقد كانت ليلة فظيعة لم تنقطع خلالها الانفجارات ، وظللت طوالها ملتصقا بجدار القبو كفأر مذعور . وحلمت وانا يقظان اني تحولت الى طائر اسطوري ، لا يخترق الرصاص صدره ، ولا تحرق النار ريشه، واني بسطت جناحي الهائلين فوق قريتي فصارت القنابل تتساقط عليهاما ثم تنزلق الى الوديان القريبة باردة ميتة ، ثم لم البث ان اندفعت نحو مصادر النار العدوة ، فما كاد ظلي يغمر مواقعها حتى خرست ، وتحولت المدافع الى كتل خشبية عاجزة والجنود وراءها الى دمى متجمدة لا حيوية فيها ولا حراك ، وما كدت اعود الىالقرية حتى رأيت بيوتها المتهدمة تنهض شامخة من جديد ، ومئات الجداول تنفجر من جنباتها ، فتحولها الى جنات خضراء يمرح فيها آلاف الاطفال بثيابهم الزاهية كالربيع ، وضحكاتهم البريئة ،ذات الرنين الملائكي الحلو ، والاصداء السماوية الساحرة .

... واستيقظت من « حلمي » على مواء هرة ، كانت كما يبدو تبحث عن ملاذ ، حتى اذا دخلت القبو ، تشممت ريح انسي ، فزاولها بعض ذعرها ودنت مني ، وعيناها تقدحان في الظلمة ، وراحتتحس بي وتشعرني انها وجدت بجانبي ما كانت تنشده منانس وامان .

.. وانست بها بدوري ، حتى اذا كان الصباح ، تفارقنا على امل اللقاء في المساء ، وخرجت وقد اغراني توقف القصف ، اتفقد القرية ، امر ببيوتها المدمرة متحسرا ، واتوقف طويلا طويلا امام التي لا تزال النار تفترسها على مهل ، كوحش امن كل مفاجأة ، فاقعى فوق فريسته يستل روحها يتلذذ وينهش لحمها بانتشاء .والتقيت خلال جولتي فلولا من الهررة والكلاب والدواب تهيم في الدروب الملتوية والحزن يقطر من عيونها الكسيرة ، ويشي تهدج خطاها بما تعانيه من

انكسار وغربة وضياع .

... وحاول صابر ان يستدير الى جانبه الايمن ، ولكنه تذكر انه اعجز من ان يستطيع ذلك ، فساح العرق البارد على جبينه الاسمر بغزارة ، وكسا سحنته اصفرار خفيف ، وشرد بصره للحظات فمسحت الممرضة عرقه ، وناولته كوبا من الماء وهي تهمس :

ـ اشرب وهوّن عليك ، انها ارادة الله .

.. وغمغم صابر باستنكار :

ـ ارادة الله ؟ ام ارادة الجبناء ، الذين ...

... وحاول ان يكمل ، ولكن الممرضة صرفته بلباقة :

ـ ما لنا وللسياسة استاذ صابر ، واكمل لنا قصتك .

ـ قصتي ؟ اليست هي قصة شعبنا كله ؟

فردعته بلطف :

ـ الم أقل لك ما لنا وللسياسة ؟

فهز رأسه بقرف يمازجه الاسف وتابع :

ـ ولم استطع ان اكمل جولتي في القرية ، فلقد استانف العدو عند الاصيل رمايته الكثيفة الجنونة ، فقدرت ان هذا القصف سوف يتبعه اجتياح بري بلا شك ، رأيت انه من الاسلم ان اعود الى قبو المنزل ، انتظر فيه ما سوف تحمله الساعات القادمة .

.. وهرعت الى المنزل التمس الحماية .. ولكن يا لدهشتي !.. اين منزلنا ؟ هنا كان بقناطره الحجرية الجميلة .. ثم طار فجاة كأحداث الحكايا .. لقد تحول الى انقاض ، الى اكوام من الرماد والذكريات والحجارة . .. وقبعت فوق الاطلال ، وراح حزني يتنامى، ويكبر ، ويغمر الدنيا ، وكنت احسه عميقا كجرح مميت ، فتاكا كنصل كافر ، وكنت كلما وقعت عيناي على بقايا كتبي ممزقة بين الانقاض ، تتشنج اعصابي ، وبلفتة عفوية اتامل ساعدي واصرخ :

ـ يا للعار .. الا يستطيع هذان الساعدان ان يحميا منزلي ؟..

وفجاة يغمرني الاحساس بالعجز : فاتضاءل كنملة ، واهون كقشة تقصمها اقدام العابرين ، وتسيطر عليّ سكينة مستسلمة تحولني الى جزء من هذه الانقاض التي اقبع فوقها كمالك الحزين !

... وعند الغروب قررت ان اقضي ليلتي في المقبرة ، فتوجهت نحوها ، وفي الطريق تعثرت برأس طفل ، انحنيت فوقه وتميزت وجهه. انه رأس ماجد ابن ناطور القرية ، كان تلميذا عندي في صف الحضانة ، داعبت شعره الاسود ، مسحت جبينه المعفر باصابعي، ذعرت لعينيه العسليتين الجاحظتين .. وهزتني بقايا البسمة التي فاجاها الموت الشقي فرقدت آمنة على شفتيه :

ـ المغفرة يا ماجد ، يا طفلي العزيز ، لقد هرب الوطن كله ،وهرب معه اهلك جميعهم وتركوك .

.... فتشت عن جثة ماجد فلم اعثر عليها . ربما كانت ما تزال ملقاة هناك في احد الازقة او ربما كانت كلاب القرية قد جعلت منها وليمتها المسائية ، وفكرت في ان اتابع التفتيش عنها ، ولكن مدفعية العدو عادت تهدر وتزأر من جديد .. وعادت تزرع قنابلها حوالي ، فتركت جمجمة ماجد تتدحرج .. من بين يدي وعدوت مسرعا الى مدينة الاموات .

.. وعندما ولجتها ، فوجئت ان « الكثيرين » قد سبقوني اليها، عدد لا بأس به من الحمير والكلاب والقطط والدجاج ، لقد قادت الغريزة هذه المخلوقات الى هنا ، يا للمفارقات العجيبة ، انها مثلي جاءت تنشد الطمانينة والنجاة في رحاب الموت .

... في منتصف الليل توسدت احد القبور لانام بعد ان هدني الجوع والاعياء والسهر ، وضعت رأسي تحت شاهدة القبر تماما فداهمني خوف رهيب لم اعرف مثله في حياتي . استعنت عليه بآية الكرسي، رددتها في سري اكثر من مرة ، واتبعتها بصغار السور ، واما تيسر من الاوراد واسماء الله الحسنى،ولكن الخوف ظل يزملني . كنت اشعر ان شيئا كالافعى ينساب في دمي واعصابي ، ويفح في رأسي ، وخيل اليّ اني اسمع لغط الاموات وضجيجهم ، وان الرموس التي حولي تمور وتتزلزل ، وان ما فيها من رفات ينتفض غاضبا ، وينتصب في وجهي مكشرا كالرياح ، وخيل اليّ ان الارض تنشق عن سيل لا حصر له من البشر يتدافعون نحوي ، ويتحلقون حولي ، ويغرقونني ببصاقهم وسخريتهم ولعناتهم :

جبان .. جبان .. جبان ..

فصرخت في وجوههم كالمجنون :

ـ لست انا الجبان ، الجبان هو الوطن ..

.. وظل صابر يصرخ وهو يرتعد ، وصوته يدوي في ارجاء المستشفى :

ـ الجبان هو وطني .. الجبان هو وطني ..

فهزته الممرضة من ذراعه مذعورة :

ـ اهدأ يا صابر .. اهدأ يا صابر .

.. وهدأ صابر قليلا .. وهمس يعتذر :

ـ آسف يا اختاه .. لقد كان ذلك شيئا لا يطاق .

.. وقالت الممرضة وهي تخشى ان تعاوده ثورته :

ـ يحسن بك ان تنام لترتاح ..

ولكنه تابع كأنه لم يسمعها :

ـ وخرجت من المقبرة أعدو في ازقة القرية ، وما كدت ابلغ زاوية الجامع الشرقية حتى صرخ بي صوت :

ـ من هنالك ؟

فاجبت على الفور :

ـ المعلم صابر ، معلم القرية ،

وهبط قلبي . لعلها طلائع العدو ، ورثيت لنفسي : « اية ميتة ستموتها يا صابر » ولكن قائد المجموعة طمأنني بصوته الرفيق :

ـ استاذ صابر لا تخف .. نحن اخوان .

.. وهتفت مجنونا من الفرح :

واخيرا جئتم .. لقد كنت واثقا انكم ستجيئون بعد ان هرب الوطن .

.. وشرح لي الاخوان على عجل ، ان العدو بقصفه الوحشي للقرية ، انما كان يمهد بالفعل لعملية اجتياح ، وانهم تعمدوا الا يردوا على نيرانه ، قصد استدراجه ، وانهم جاؤوا الان ، بعد ان تحركت فصائله ، ليتوزعوا على مداخل القرية وممابرها ، وينتظروا موسم الصيد الدسم .

.. وعند الثالثة قبل الفجر ، بدات فخاخنا تطبق على وحوش الغاب ، فابدنا في الليلة الاولى اربع موجات متتاليات ، وفي الليلة الثانية استطعنا ان نصد هجوما اكثف ، ولم يتح لي ، مع الاسف ان اكون في عداد الذين تتبعوا الفلول العدوة الى داخل الارض المحتلة.

..وتطلع صابر ، والدمعة في عينيه ، الى سافية :

ـ لقد غرستهما هناك ، على رابية شامخة الى الجنوب من بلدتي كفر شوبا ... :

ثم رنا الى الممرضة باسما :

ـ لا ادري يا اخت نهاد ، لماذا تلح علي هذه الصورة بشكل دائم ، صورة اهل قريتي وهم يهبون لنجدة القمر ، كلما كان يهم به الحوت ، فينهدون الى اواني النحاس والواح التنك يقرعونها بشدة، ويهرعون الى بنادقهم يطلقون منها العيارات في الفضاء ، ويظلون يلاحقون الحوت اللعين بقرعهم وطلقاتهم الى ان يرغموه على الهرب واطلاق القمر .

... ايه سقى الله تلك الايام .

بيروت